

عَوَامِلُ الْقُوَّةِ

فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ
وَعَوَامِلُ سُقُوطِهَا

جمع وترتيب

مِنْ خُطْبٍ وَمُحَاضَرَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ رَسُلَانِ

حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ
الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي
النَّارِ.

• أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً» (١).

وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمَوَاعِظُ بَلِيغَةً فِي أُسْلُوبِهَا، فَصِيحَةً فِي أَدَائِهَا؛ حَتَّى تَسْلُكَ إِلَى الْقُلُوبِ أَقْصَرَ طَرِيقٍ، وَحَتَّى تَسْتَقِرَّ فِي الْأَفْنَدَةِ، وَحَتَّى تُؤَثِّرَ فِي الْأَرْوَاحِ، وَقَدْ أُوتِيَ النَّبِيُّ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَكَانَ ﷺ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، من حديث: الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وفي رواية: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادًا».

والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥)، وفي «الصحيحة» (٩٣٧).

الْقَلَائِلِ، وَلَوْ أَرَادَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَشْرَحُوا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ لَاحْتَاجُوا إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَجَلَّدَاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١).



(١) أخرجه البخاري (رقم ١، و ٥٤)، ومواضع، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

عَوَامِلُ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ

فِي نَصَائِحِ جَامِعَةِ النَّبِيِّ ﷺ

* تَقْوَى اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ:

فِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ أَبْلَغَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَمْ يُبْلَغْ فِي غَيْرِهَا، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ وَقَائِعِ الْأَحْوَالِ مَا يَدُلُّ عَلَى وَشِيكَ الْإِنْتِقَالِ؛ لِذَا قَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «كَانَهَا مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ»، وَطَلَبُوا الْوَصِيَّةَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

«وَعَظَنَّا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ -أَي: سَالَتْ مَدَامِعُهَا-، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ -أَي: صَاقَتْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ-».

فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: «كَانَهَا مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ؛ لِأَنَّ الْمُودِّعَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِيَ أَهْلَهُ وَمَنْ يَخْلُفُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، حَتَّى يَكُونَ أَكْثَرُ اسْتِقْرَارًا فِي النُّفُوسِ، وَحَتَّى يَكُونَ دَاعِيَةً إِلَى التَّنْفِيزِ».

«كَانَهَا مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ، فَأَوْصِنَا».

وَكَذَا شَأْنُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي تَحْرِيرِهِمْ لِلْخَيْرِ، وَفِي بَحْثِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ، لَا يَدْعُونَ مَجَالًا إِلَّا وَآلَقُوا أَسْمَاعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَفَتَحُوا أَعْيُنَ بَصَائِرِهِمْ؛

لِيَتَلَقَّوْا الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَرْسَلَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

وَالْهُدَى -عِبَادَ اللَّهِ- هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينُ الْحَقِّ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهَذَا الدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

«أَوْصِنَا».

فَقَالَ ﷺ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

وَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

فَتَقْوَى اللَّهِ ﷻ هِيَ النِّجَاةُ، وَالنَّاسُ يَتَفَاضِلُونَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَتَقْوَى اللَّهِ ﷻ هِيَ الْعَمَلُ بِالْمَأْمُورَاتِ، وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ.

فَالْتَقْوَى كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، مَنْ حَصَلَهَا جَعَلَ لِنَفْسِهِ وَقَايَةً مِنَ النَّارِ.

وَقَوْلُ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. أَيُّ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَذَابِهِ وَقَايَةً وَجَنَّةَ نَقِيكُمْ عَذَابَهُ وَسُوءَ عِقَابِهِ.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ»، وَعَلَيْكُمْ: اسْمٌ فِعْلٍ أَمْرٌ بِمَعْنَى الزُّمُوءِ، الزُّمُوءُ تَقْوَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَخُذُوا بِتَقْوَاهُ، وَلَا تَنْحَرِفُوا عَنْ سَبِيلِ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ.

«عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ»: فَضَبَطَ الْعَلَاqَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَمَلَ بِأَوَامِرِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَرْجُو رِضْوَانَ اللَّهِ، وَاجْتَنَبَ مَنْهِيَّاتِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ، كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ، وَصَارَ عَبْدًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ.

فَضَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ الْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا عِلَاقَةٌ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

* السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْحُكَّامِ، وَعَدَمُ إِثَارَةِ الْفَوْضَى مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ:

ثُمَّ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ الْقَاعِدَةَ الَّتِي إِذَا مَا أَخَذَ بِهَا الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ، عَاشَ فِي تَوَاقُومٍ وَسَلَامٍ، وَبَعُدَ عَنْهُ شَبْحُ الْفَوْضَى وَالْإِنْقِسَامِ، وَمَتَى مَا خُولِفَتِ الْقَاعِدَةُ، دَبَّتِ الْفَوْضَى فِي أَرْجَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَانْتَهَكَتِ الْأَعْرَاضَ، وَسَلَبَتِ الْأَمْوَالَ، وَأَزْهَقَتِ الْأَرْوَاحَ، وَقَطَّعَتِ الطُّرُقَ، فَلَا جُمُعَةَ وَلَا جَمَاعَةَ؛ مِنْ أَثَرِ هَذِهِ الْفَوْضَى الَّتِي تَعُمُّ الدِّيَارَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، -عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ- وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسُهُ رَيبِيَّةٌ»^(١).

(١) أخرج البخاري (٦٩٣، و٦٩٦، و٧١٤٢)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسُهُ رَيبِيَّةً».

فَأَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاَةِ الْأُمُورِ مِمَّنْ وَلَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَوْ كَانَ مُتَغَلِّبًا، وَلَكِنْ طَاعَتُهُ فِي الْمَعْرُوفِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» (١). (*)

وَإِذَا أُبْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ بِإِمَامٍ جَائِرٍ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى جَوْرِهِ هُوَ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَرِيقَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ؛ لِأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ يُوجِبُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِ.

فِيصْبِرُ عَلَيْهِ كَمَا يُصْبِرُ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى ظُلْمِ الْأُمُورِ وَالْمَنْهِيِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ لُقْمَانَ: ﴿يَبْنِئْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وَهَذَا الْحَقُّ لِلْإِمَامِ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا:

- حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيُصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ». أَخْرَجَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧)، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٠)، مِنْ حَدِيثِ: عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، فَأَوْقَدَ نَارًا، وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَلُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا، وَقَالَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: مُحَاضَرَةِ: «وَأَقَعُ الْأُمَّةِ الْمُرَّةُ» - الثَّلَاثَاءُ ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣ هـ/

الشَّيْخَانِ^(١).

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٢).

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ كَذَلِكَ: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُ وَنَهَا».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَا تَأْمُرُنَا؟

قَالَ صلوات الله عليه وآله: «تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ». أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ^(٣).

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله: «أَثَرَةٌ»: هِيَ الْإِنْفِرَادُ بِالشَّيْءِ عَمَّنْ لَهُ فِيهِ حَقٌّ، وَتَعَلُّقٌ بِالْأَمْوَالِ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله: «وَأُمُورٌ تُنْكِرُ وَنَهَا»: أَيُّ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ؛ إِمَّا بِالتَّقْصِيرِ فِيهَا، وَإِمَّا بِإِحْدَاثِ الْبِدْعِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٥٤، ٧١٤٣)، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٩)، مِنْ طَرِيقِ: حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ الْجَعْدِ أَبِي عُمَانَ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله، قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ...» الْحَدِيثُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٥٣)، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٩)، مِنْ طَرِيقِ: عَبْدِ الْوَارِثِ، عَنْ الْجَعْدِ أَبِي عُمَانَ... بِإِسْنَادِهِ، بَلْفَظٍ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا...» الْحَدِيثُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٠٣، ٧٠٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٣)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ^(١): «فِيهِ الْحَثُّ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَوَلَّى ظَالِمًا عَسُوفًا، فَيُعْطَى حَقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَلَا يُخْرَجُ عَلَيْهِ وَلَا يُخْلَعُ، بَلْ يُتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كَشْفِ أَذَاهُ، وَدَفْعِ شَرِّهِ وَإِصْلَاحِهِ».

* وَنَهَى الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ عَنْ سَبِّ الْأَمْرَاءِ وَإِهَانَتِهِمْ:

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «نَهَانَا كُبْرَاؤُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَمْرَاءَكُمْ، وَلَا تَغْشَوْهُمْ، وَلَا تُبْغِضُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ». أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ^(٢).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «إِنَّ أَوَّلَ نِفَاقِ الْمَرْءِ طَعْنُهُ عَلَى إِمَامِهِ». أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»^(٣).

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٢ / ٢٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١ / ٢٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠ / رقم ٧١٠١، و٧١١٧)، وجود إسناده الألباني في «ظلال الجنة» (١٠١٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢ / رقم ٨٩٥٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١ / ٢٨٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧ / ١٩٠)، من طريق: بإسناد صحيح، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيْبٍ، قَالَ: وَقَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ عَلَى بَابِ مُعَاوِيَةَ فَحَجَبَهُ لِشُغْلٍ كَانَ فِيهِ فَكَأَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «مَنْ يَأْتِ أَبْوَابَ السُّلْطَانِ قَامَ وَقَعْدًا، وَمَنْ يَجِدُ بَابًا مُغْلَقًا يَجِدُ إِلَى جَنْبِهِ بَابًا رَجَا فَتْحًا إِنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَإِنْ اسْتَعَاذَ أُعِيدَ، وَإِنَّ أَوَّلَ نِفَاقِ الْمَرْءِ طَعْنُهُ عَلَى إِمَامِهِ».

فَأَمَّا الْغُرَبِيُّونَ وَاتَّبَاعُهُمْ، وَأَمَّا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ، وَالضَّلَالُ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ وَاتَّبَاعِهِمْ؛ فَيَقُولُونَ: تُرِيدُونَ تَقْدِيسَ الْبَشَرِ، وَعِبَادَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا!!

إِنَّمَا الرَّئِيسُ أَوْ الْإِمَامُ أَوْ وَلِيُّ الْأَمْرِ أَوْ الْحَاكِمُ عِنْدَ -هَؤُلَاءِ الضَّلَالِ- مُوَظَّفٌ يَنْبَغِي أَنْ يُحَاسَبَ، وَأَنْ يُرَاجَعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، فَلَيْسَ بِوَلِيِّ أَمْرِ، وَعَلَيْهِ فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَوْلِهِمْ وَلِيِّ أَمْرٍ، وَقَدْ غَاب!!

هَذَا النَّهْيُ لَيْسَ تَعْظِيمًا لِدَوَاتِ الْأُمَرَاءِ -النَّهْيُ عَنْ سَبِّهِمْ، عَنِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، عَنِ الطَّعْنِ فِيهِمْ، عَنْ شَتْمِهِمْ، عَنْ إِهَانَتِهِمْ- النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ لَيْسَ تَعْظِيمًا لِدَوَاتِ الْأُمَرَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِعِظَمِ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي وَكَلَّتْ إِلَيْهِمْ فِي الشَّرْعِ، وَالَّتِي لَا يُقَامُ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مَعَ وُجُودِ سَبِّهِمْ وَالْوَقِيعَةِ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ سَبَّهُمْ يُفْضِي إِلَى عَدَمِ طَاعَتِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِلَى إِيْغَارِ صُدُورِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ، مِمَّا يَفْتَحُ مَجَالًا لِلْفَوْضَى الَّتِي لَا تَعُودُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا بِالشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِّ، كَمَا أَنَّ نَتِيجَتَهُ وَثَمَرَتَهُ سَبُّهُمْ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ، وَتِلْكَ هِيَ الطَّامَةُ الْكُبْرَى، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «وَلَعَلَّهُ لَا يُعْرَفُ طَائِفَةٌ خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ؛ إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَرَاكَ».

وَقَدْ نَبَّهَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى خُطُورَةِ مُخَالَفَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَذَكَرَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، فَقَالَ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقِّعِينَ»^(٢): «شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٩١).

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٣/ ١٢).

إِيجَابِ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصَلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ -وإن كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمُوتُ أَهْلُهُ-، وَهَذَا كَالْإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْوَلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ فِتْنَةٍ وَشَرٌّ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ رَأَاهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ، فَطُلِبَ إِزَالَتُهُ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ.

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ، وَرَدَّهُ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ -مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ- خَشْيَةُ وَقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرِ. وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وَقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. (*)

فَالنَّبِيُّ ﷺ رَاعَى حُقُوقَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْمُجْتَمَعَ لَا يَصْلُحُ، وَالنَّاسُ فِيهِ فَوْضَى لَا سِرَاةَ لَهُمْ. (*) (٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «عَقِيدَةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي حُقُوقِ الْحُكَّامِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٥هـ / ٦/٦/ ٢٠١٤م، باختصار.

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «مَظْلُومِيَّةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ» - الْجُمُعَةُ ١٦ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ

١٤٣٥هـ / ١٧-١-٢٠١٤م.

* مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

قَالَ عليه السلام: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، وَقَدْ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ، وَمَا زَالَ وَاقِعًا فِي الْأُمَّةِ إِلَى الْيَوْمِ، «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»: السُّنَّةُ هِيَ الْعَاصِمُ مِنَ الْإِخْتِلَافِ، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، السُّنَّةُ كَمَا جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ عليه السلام، لَا كَمَا يَقُولُ بِهَا الْمُرْشِدُونَ وَالْأَمْرَاءُ، وَيَقُولُ بِهَا الدَّرَاوِشُ!!

وَأِنَّمَا السُّنَّةُ الَّتِي هِيَ السُّنَّةُ عَنْ عُلَمَائِنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ -.

«وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُقَالُ لَهُ بَدْعَةٌ حَسَنَةٌ. (*)

إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مَعِينَ الْحَيَاةِ فِي الْوَحْيِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وَأَعْظَمُ الْحَيَاتَيْنِ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَأَحْيَا النَّاسِ أَتْبَعُهُمُ لِلْوَحْيِ، وَهُوَ آمَنُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ، وَبِهَذَا يَدُقُّ فَهْمُكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ

(١) تقدم تخريجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: مُحَاضَرَةٍ: «وَاقِعُ الْأُمَّةِ الْمُرَّةُ» - الثَّلَاثَاءُ ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣ هـ/

٧/٨/٢٠١٢م، باختصار.

تَضِلُّوْا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ». رَوَاهُ مَالِكٌ وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١). (*)

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١٥ / رقم ٨٩٩٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢ / ٢٥٠، ترجمة ٨٠٤)، وابن عدي في «الكامل» (٥ / ١٠٦، ترجمة ٩١٨)، وابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (رقم ٥٢٨)، وفي «شرح مذاهب أهل السنة» (رقم ٤٤)، والدارقطني في «السنن» (رقم ٤٦٠٦، مؤسسة الرسالة)، والحاكم في «المستدرک» (١ / ٩٣، رقم ٣١٩) وصححه، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١ / رقم ٨٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / رقم ٢٠٣٣٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١ / رقم ٨٨)، من طريق: صالح بن موسى الطَّلحي، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوْا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ».

وأخرجه مالك في «الموطأ» في (كتاب القدر، الحديث رقم ٣، تحقيق عبد الباقي)، بلاغا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوْا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ».

وحسنه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٧٦١)، وفي «صحيح الجامع» (٢٩٣٧)، (٣٢٣٢)، والحديث أصله في «صحيح مسلم» (٢٤٠٨)، من حديث: زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعظَ وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»... الحديث.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «كَيْفَ تَصَحَّبُ النَّبِيُّ ﷺ؟» - خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ ٨ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٣٦ هـ / ٢٧-٢-٢٠١٥ م.

فَالْوَحْيُ هُوَ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، وَإِذَا خَلَا الْعَالَمُ مِنَ الرُّوحِ وَالنُّورِ
وَالْحَيَاةِ؛ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى السَّاعَةَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُرْفَعُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مِنَ الصُّدُورِ
وَمِنَ السُّطُورِ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ آيَةٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَذَلِكَ
بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَحِينَئِذٍ -عِنْدَمَا يَخْلُو الْعَالَمُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالنُّورِ وَمَادَّةِ هَذَا
الْوُجُودِ الْحَقِّ- فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُقِيمُ السَّاعَةَ حِينَئِذٍ.

إِذَنْ، الْوَحْيُ هُوَ نُورُ الْعَالَمِ وَحَيَاتُهُ وَهَدَايَتُهُ، وَعَلَى قَدَرِ تَمَسُّكِ الْإِنْسَانِ بِهَذَا
النُّورِ وَالْحَيَاةِ وَالْهُدَى يَكُونُ تَحْقِيقُهُ لِلْقَصْدِ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَنَا لِعَايَةِ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ مُبَيَّنَةٌ فِي الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَإِذَا
مَا عَاشَ النَّاسُ بِهَذَا الْوَحْيِ؛ سَعِدُوا فِي الْحَيَاةِ، وَتَجَنَّبُوا سُبُلَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَا حَيَاةَ لِهَذَا الْعَالَمِ إِلَّا بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْوَحْيِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: مُحَاضَرَةِ: «عِشُوا الْوَحْيَ الْمَعْصُومَ» - الْخَمِيسُ ٢٣ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ

التَّوْحِيدُ أَكْبَرُ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ وَعَزَّتِهَا وَنَصَرَهَا

* وَمِنْ أَكْبَرِ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ: إِصْلَاحُ الْعَقِيدَةِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْقَدَ عَلَيْهِ الْخِنَصْرُ فِي أَخْذِ بِأَسْبَابِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ.

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ أُمُورَ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ نَلْتَزِمَ بِالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَلَّغَنَا عَنْ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَبَيَّنَّ لَنَا نَبِينَا ﷺ فَضْلَ التَّوْحِيدِ، وَعَظِيمَ أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ، وَفِي الْمَالِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. (*)

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ بِمَا بَعَثَ بِهِ إِخْوَانَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِهِ، بَعَثَهُمْ جَمِيعًا بِرِسَالَةِ التَّوْحِيدِ؛ لِتَكُونَ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَكُلُّهُمْ - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - قَالُوا لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَالرَّسُولُ ﷺ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «خُطْبَةُ عِيدِ الْأَضْحَى لِعَامِ ١٤٢٧ هـ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا!!» - السَّبْتُ ١٠ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٧ هـ / ٣٠-١٢-٢٠٠٦ م، باختصار.

لَيْسَ مَقْصُودُ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِالسِّتَةِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَعَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَعْنَاهَا، وَتَحْقِيقِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُنَافِيهَا.

عِبَادَ اللَّهِ! بِالتَّوْحِيدِ يُقْبَلُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَمِنْ غَيْرِ التَّوْحِيدِ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ طَهَارَةٍ، فَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ تَوْحِيدٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

فَقَبُولُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الصَّالِحَةِ، مُتَوَقَّفٌ عَلَى التَّوْحِيدِ.

التَّوْحِيدُ فِيهِ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾: أَيِ بَشْرِكٍ ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

بِالتَّوْحِيدِ تَكُونُ الْعِزَّةُ، وَيَتَحَقَّقُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا، وَتَكُونُ عِزَّةُ الْمَرْءِ فِي الْآخِرَةِ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فَالْعِزَّةُ، وَالنَّصْرُ دُنْيَا وَآخِرَةً لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ الْمَجِيدِ.

إِنَّ التَّوْحِيدَ يُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ؛ لِيَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ.

فَالتَّوْحِيدُ الْمُحَقِّقُ الصَّافِي يُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْإِلَهَةِ الْمُدَّعَاةِ الْبَاطِلَةِ.

وَيَجْعَلُ التَّوْحِيدُ الْإِنْسَانَ شَاعِرًا بِعِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ فِي تَحْقِيقِ عِبَادَتِهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَبَرَّاهُ، وَسَوَّاهُ.

يُحَرِّرُ عَقْلَهُ كَمَا حَرَّرَ قَلْبَهُ، يُحَرِّرُ عَقْلَهُ مِنَ الْخُرَافَاتِ، مِنَ التَّرَهَّاتِ، مِنَ الْخُزَعِبَاتِ، حَتَّى لَا يَخَافَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ وَأَفْضَالِهِ.

وَأَعْظَمُ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ: دُخُولُ الْجَنَّةِ، فَالْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مُوَحِّدٌ، حَرَّمَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وَأَمَّا الْمُشْرِكُ؛ فَهُوَ مُوزَعُ الْقَلْبِ، مُقْلَقِلُ الْبَالِ، لَا يَهْدَى لَهُ ضَمِيرٌ، وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يُحَرِّمُ عَلَى صَاحِبِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَيُوجِبُ لَهُ النَّارَ وَالْدُّخُولَ فِيهَا، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَهُوَ فِي الْحَيَاةِ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

إِنَّ الشِّرْكَ يُطْفِئُ نُورَ الْفِطْرَةِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ [التين: ٤-٦].

قَدْ بَيَّنَّ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَعْضَ عَنَاصِرِ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وَالرُّوحُ لَا تَتَحَرَّرُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَا خُلِقَتْ لَهُ، وَجُعِلَتْ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ بِاللَّهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥].

إِنَّ الشِّرْكَ مَهَانَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَقَضَاءٌ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَسَبَبٌ لِلذُّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ دُنْيَا وَآخِرَةً، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ؛ فَلَا عِزَّةَ لَهُ.

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلَا تَتَحَقَّقُ فِيهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْحَقَّةُ إِلَّا إِذَا حَقَّقُوا الْغَرَضَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، وَإِذَا لَمْ يُحَقِّقُوهُ تَمَزَّقَتْ نَفُوسُهُمْ.

الشِّرْكَ يُمَزِّقُ وَحْدَةَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]﴾ (*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» - الْجُمُعَةُ: ١٢ ذُو الْقَعْدَةِ

١٤٣٣هـ / ٢٨ سبتمبر ٢٠١٢م، باختصار.

اعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّهُ لَا يُلَوِّثُ النَّفْسَ، وَلَا يُفْسِدُ الْفِكْرَ، وَلَا يُضَيِّعُ الْعَقْلَ، وَلَا يُضَيِّعُ الدُّنْيَا، وَلَا يَهْدِمُ الدِّينَ إِلَّا الشَّرْكُ، فَكُونُوا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ. (*)

وَالْمَصْلَحَةُ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِمَا يَتَحَقَّقُ بِهِ نَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَنَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فَلَا يَتَحَقَّقُ الصَّلَاحُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَنْتَفِي الْفَسَادُ مِنْهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فِيهَا، الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَلْقَ، فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَى مِنَ الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا هُوَ: تَحْقِيقُ دِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فِيهِ تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ، وَبِهِ تَنْتَفِي الْمَفْسَدَةُ. (* / ٢).

* الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ:

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَشْرَفُ وَأَكْرَمُ مَقَامَاتِ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ.

هِيَ أَكْرَمُ مَقَامٍ يَقُومُهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَيْهِ، دَالًّا عَلَيْهِ، مُرْشِدًا إِلَى صِرَاطِهِ، مُتَّبِعًا لِسَبِيلِ نَبِيِّهِ، مُقِيمًا عَلَى ذَلِكَ، مُخْلِصًا فِيهِ، آتِيًا بِهِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «خُطْبَةُ عِيدِ الْأَضْحَى لِعَامِ ١٤٢٧ هـ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا» - السَّبْتِ

١٠ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٧ هـ / ٣٠-١٢-٢٠٠٦ م.

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةُ عِيدِ الْفِطْرِ: ١٤٣٨ هـ «فُتْرَانِ السُّدُودِ» - الْأَحَدُ ١ مِنْ شَوَّالِ

١٤٣٨ هـ / ٢٥-٦-٢٠١٧ م.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

هَذَا اسْتِفْهَامُ الْغَرَضِ مِنْهُ النَّفْيُ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ: لَا أَحَدَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ، لَا إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا إِلَى مَنْهَجِهِ، وَلَا إِلَى طَرِيقَتِهِ، وَلَكِنْ إِلَى اللَّهِ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: فَالْتَزَمَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَعَمِلَ بِهِ.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: فَاسْلَمَ الزَّمَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالشَّرْعِ الْأَعْرَ، بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يَتَّبِعُ، وَلَا يَتَزَيَّدُ، وَلَا يَجِدُ حَظَّ نَفْسِهِ، بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ تَحْتَ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهِ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُخْلِصًا، إِلَى اللَّهِ خَالِصًا، لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَا أَحَدَ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلًا، وَلَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ فِعْلًا، وَلَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ دَعْوَةً.

وَكُلُّ مُكَلَّفٍ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فَمَنْ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا إِلَى اللَّهِ، وَاتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ دُعَاةَ إِلَى اللَّهِ، كُلُّ بِحَسَبِهِ، عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ، لَا يَتَزَيَّدُ، وَإِلَّا كَانَ دَاعِيًا إِلَى غَيْرِ رَبِّهِ، وَإِلَى غَيْرِ صِرَاطِهِ، وَإِلَى غَيْرِ دِينِهِ، قَائِلًا عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ وَعَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ مَجَالٍ.

* الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبُ خَيْرِیَّةِ الْأُمَّةِ، وَقُوَّتُهَا وَعِزَّتُهَا:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أَنْتُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرُ أُمَّةٍ أُظْهِرَتْ لِلنَّاسِ، وَحُمِلَتْ وَظِيفَةَ الْخُرُوجِ
بِتَبْلِغِ النَّاسِ دِينَ اللَّهِ لَهُمْ، وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ قَدْ عَلِمَهَا اللَّهُ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ؛
لِأَنَّ عِلْمَهُ يَشْمَلُ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ.

وَسَبَبُ بَقَاءِ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةِ فِيكُمْ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَنْكُمْ سَتَظْلُونَ تَأْمُرُونَ
دَاخِلَ مُجْتَمَعِكُمُ الْمُسْلِمِ بِمَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ حُسْنُهُ، وَتَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مَا
عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ قُبْحُهُ، فَتَحْمُونَ مُجْتَمَعَكُمْ بِهَذَا -أَيَّ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِنْحِرَافِ الْخَطِيرِ، وَالْإِنْهِيَارِ إِلَى الْحَضِيضِ الَّذِي بَلَغَتْهُ
الْأُمَّةُ قَبْلَكُمْ.

وَأَنْكُمْ سَتَظْلُونَ تَصَدِّقُونَ بِاللَّهِ، وَتُخْلِصُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ مَهْمَا اشْتَدَّتْ
عَلَيْكُمْ النِّكَبَاتُ مِنَ الْأَمَمِ الْأُخْرَى؛ بُغْيَةً إِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ. (*)

* الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ سَبِيلُ النِّجَاةِ لِلْأُمَّةِ وَلِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا:

إِنَّ مَسْئُولِيَّةَ الْمُسْلِمِ عَظِيمَةً، وَمَعَكَ طَوْقُ النِّجَاةِ، وَالنَّاسُ يَغْرُقُونَ تَحْتَ
عَيْنِكَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَمُدُّ لَهُمْ يَدًا بَعُونَ؟!!

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيلُ عَلَى مُحْتَصِرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [آل عمران:

دِينُ اللَّهِ يَسْتَنْقِذُ الْبَشَرِيَّةَ مِمَّا تَرَدَّتْ فِيهِ.

دِينُ اللَّهِ - وَحْدَهُ - يُنْقِذُ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ مِمَّا بَلَغُوهُ مِنْ هَذَا الْإِنْحِطَاطِ الْهَاطِطِ.

دِينُ اللَّهِ، عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُبَلِّغُوهُ خَلْقَ اللَّهِ، فِي أَرْضِ اللَّهِ، عَلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِإِنْقَازِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ دَمَارٍ تَبْدُو عَلَائِمُهُ، وَخَرَابٍ تَتَّضِحُ مَعَالِمُهُ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ سَفِينَةُ النِّجَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ صَفَرِ ١٤٢٩ هـ/

الْعَمَلُ بِأَمَانَةٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ

إِنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَمَرَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَاتِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ، فَالْعِبَادَاتُ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهَا أَنْ تُنْقَصَ، فَإِذَا انْتَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَهُوَ خَائِنٌ.

وَالْمُعَامَلَاتُ أَمَانَةٌ، وَمَا يُسْتَأْمَنُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ أَمَانَةٌ، وَالسِّرُّ أَمَانَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرٌ وَنَهِيَ فِي دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهِ أَلَّا يُؤْتَى بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ.

فَإِذَا كَانَ إِنْسَانٌ فِي عَمَلٍ، فَالْعَمَلُ الَّذِي اسْتَوْمِنَ عَلَيْهِ أَمَانَةٌ، فَإِذَا خَانَ فِيهِ فَهُوَ خَائِنٌ، وَجَزَاءُ الْخَائِنِ مَعْلُومٌ (*).

* حَتَّ اللَّهُ عَلَى الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

حَتَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَمَلِ، وَطَلَبِ الرِّزْقِ -رِزْقِ اللَّهِ- بِأَنَاءٍ وَرِفْقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: حُطْبَةٍ: «هَدَايَا الْمُوظَّفِينَ» - الْجُمُعَةُ ٥ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٤٣١هـ / ١٩ -

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْنِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. يَعْنِي: فَإِذَا فُرِغَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ؛ لِلتَّجَارَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِكُمْ وَمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، وَمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ.

وَاطْلُبُوا رِزْقَ اللَّهِ بِأَنَاءٍ وَرَفِقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدَحٍ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ؛ رَغْبَةً فِي الْفَوْزِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (*).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مُنْقَادَةً سَهْلَةً مُطَوَّعَةً، تَحْرُثُونَهَا وَتَزْرَعُونَهَا، وَتَسْتَخْرِجُونَ كُنُوزَهَا، وَتَتَفَعَّلُونَ مِنْ طَاقَاتِهَا، وَخَصَائِصِ عَنَاصِرِهَا.

فَامْشُوا فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا وَنَوَاحِيهَا مَشْيًا رَفِيقًا؛ لِتَحْصِيلِ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَكُلُّوا مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَاکْتَسِبُوا الرِّزْقَ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ. (* / ٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۚ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ وَأَحْسِنَ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۚ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الجمعة: ١٠].

(*) / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [تفسير

الْمَعْنَى: اِطْلُبْ فِي تَصَرُّفِكَ فِيمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ، قَاصِدًا ثَوَابَ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ فِي الْجَنَّةِ بِأَنْ تَقُومَ بِشُكْرِ اللَّهِ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تُنْفِقَ الْمَالَ الَّذِي أَعْطَاكَ فِي رِضَاهُ، وَلَا تَفْهَمُ أَنَّ نَنْصَحُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ مُوجَّهًا لِتَحْصِيلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بَلْ نَقُولُ لَكَ أَيْضًا: لَا تَتْرُكْ حَظَّكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَكَ ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ﴾.

وَأَحْسِنْ إِلَى فُقَرَاءِ قَوْمِكَ وَمَسَاكِينِهِمْ، وَذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ فِيهِمْ بِمَالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ بِنِعْمَتِهِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [تَفْسِيرُ سُورَةِ

الاجتماع والأخوة الصادقة من عوامِلِ بناءِ الدُّوَلِ

إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بَيْنَ لَنَا طَرِيقًا وَاحِدًا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْلُكُوهُ، وَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ، وَمَنْهَجُ دِينِهِ الْقَوِيمُ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَيْهِمْ بَيْنَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فَالَّذِينَ جَعَلُوا مِنْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَعَمِلُوا بِقَوْلِهِ ﷺ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

فَدِينُنَا دِينُ الْأُلْفَةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَالتَّفَرُّقُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ، فَتَعَدُّ الْجَمَاعَاتُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَكُونَ جَمَاعَةً وَاحِدَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(١).

وَيَقُولُ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ»^(٢).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبُنْيَانَ، وَأَنَّ الْجَسَدَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مُتَمَاسِكٌ، لَيْسَ فِيهِ تَفَرُّقٌ؛ لِأَنَّ الْبُنْيَانَ إِذَا تَفَرَّقَ سَقَطَ، كَذَلِكَ الْجِسْمُ إِذَا تَفَرَّقَ فَقَدَ الْحَيَاةَ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْاجْتِمَاعِ، وَأَنْ نَكُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، أَسَاسُهَا التَّوْحِيدُ، وَمَنْهَجُهَا دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسَارُهَا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.^(*)

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ دَاعِيَةَ اتِّلَافٍ، فَلَا تَخْتَلِفُوا، وَجَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ دَاعِيَةَ مَحَبَّةٍ، فَلَا تَبَاغُضُوا.^(*)



(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، و ٢٤٤٦، و ٦٠٢٦، ومسلم (٢٥٨٥)، من حديث: أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، من حديث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «أَيُّهَا الْمَضْرِيُّونَ! لَا عُذْرَ لَكُمْ» - الْجُمُعَةُ ٢٩ مِنْصَفَر ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥/١٢/١١ م، باختصار.

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «الْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ»، باختصار.

حُبُّ الْوَطَنِ وَالْإِنْتِمَاءِ إِلَيْهِ مِنْ عَوَامِلِ بِنَائِهِ

عِبَادَ اللَّهِ! مَا دَامَتْ بِلَادُنَا إِسْلَامِيَّةً فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَى لِاسْتِقْرَارِهَا، وَاكْتِمَالِ أَمْنِهَا، وَيَجِبُ حَيَاتُهَا بِالرَّعَايَةِ، وَالْحِفَاطِ وَالْبَذْلِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ - كَمَا فِي شَرْحِهِ عَلَى «رِيَاضِ الصَّالِحِينَ»-(١):
«حُبُّ الْوَطَنِ إِنْ كَانَ إِسْلَامِيًّا فَهَذَا تُحِبُّهُ؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامِيٌّ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ وَطَنِكَ
الَّذِي هُوَ مَسْقُطُ رَأْسِكَ، وَالْوَطَنِ الْبَعِيدِ عَنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، كُلُّهَا أَوْطَانٌ
إِسْلَامِيَّةٌ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْمِيَهَا».

الْوَطَنُ إِنْ كَانَ إِسْلَامِيًّا يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُشَجَّعَ عَلَى الْخَيْرِ
فِي وَطَنِهِ، وَعَلَى بَقَائِهِ إِسْلَامِيًّا، وَأَنْ يُسْعَى لِاسْتِقْرَارِ أَوْضَاعِهِ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا هُوَ
الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ الشَّرْعِيِّ لِلْأَوْطَانِ الْمُسْلِمَةِ أَيْضًا: أَنْ يُحَافَظَ عَلَى أَمْنِهَا
وَاسْتِقْرَارِهَا، وَأَنْ تُجَنَّبَ الْأَسْبَابُ الْمُفْضِيَّةُ إِلَى الْفَوْضَى وَالِاضْطِرَابِ وَالْفَسَادِ؛
فَالْأَمْنُ فِي الْأَوْطَانِ مِنْ أَعْظَمِ مَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

(١) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ» (١ / ٦٦).

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ بَلَدِهِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ اسْتِقْرَارِهِ وَأَمْنِهِ، وَبُعْدِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنِ الْفَوْضَى، وَعَنْ الْاضْطِرَابِ، وَعَنْ وُقُوعِ الْمُشَاغَبَاتِ.

عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ بَلَدَهُ الْإِسْلَامِيَّ، وَأَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ، وَأَنْ يَمُوتَ دُونَهُ؛ فَإِنَّ مَنْ مَاتَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْأَرْضُ مَالٌ، فَمَنْ مَاتَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. (*)

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- (١): «إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ هِيَ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْعِبَادَاتِ فَقَطْ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ... وَاتَّقِ اللَّهَ فِي بَلَدِكَ، لَا تَخُنْهُ وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِ عَدُوًّا...».

فَمَا دَامَ الْوَطَنُ إِسْلَامِيًّا فَيَجِبُ الدِّفَاعُ عَنْهُ، وَيَحْرُمُ الْإِضْرَارُ بِهِ. (* / ٢).



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: مِصْرُ بَيْنَ مَطَامِعِ الْأَعْدَاءِ وَجُحُودِ الْأَبْنَاءِ - خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ ١٦ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦ هـ / ٣ / ٧ / ٢٠١٥ م، باختصار.

(١) «وَصَايَا الْأَبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ - الدُّرُوسُ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ» (ص ٢٠، مَكْتَبَةُ الْمَعَارِفِ - الرِّيَاضِ ١٤١٣ هـ).

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: كِتَابٍ: «حُبُّ الْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْإِيمَانِ» - طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ الْفَرْقَانِ - الطَّبْعَةُ الْأُولَى ٢٠٠٨ م، باختصار.

الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلِ

إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ خَيْرٌ مَا بُذِلَتْ فِيهِ الْأَعْمَارُ، وَالْحَقَّ فِيهِ
الَلَّيْلُ بِالنَّهَارِ.

الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
الْعِلْمِ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَالُ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْمُ أَعْلَى^(١) وَأَحْلَى مَا لَهُ أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمٍ^(٢)

(١) في «المنظومة الميمية»: [أَعْلَى] بالغين المعجمة.

(٢) الأبيات للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧) من «المنظومة الميمية في

الوصايا والآداب العلمية» (ص ٣٧٩ - مجموع الرسائل والمنظومات العلمية لحافظ

الحكمي، تحقيق أبو همام البيضاني)، قال حافظ الحكمي من البيت (١٦) إلى (١٩):

الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُبُّنُهُ الْـ عَلَيَاءُ فَاسْعُوا إِلَيْهِ يَا أُولِي الِهِمَمِ
الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَالُ فِي الظُّلَمِ

وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ «الصَّحِيحِينَ»^(١) مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْجَهَالَ سَبَبُ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وَمَفْهُومُ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ سَبَبُ الْهُدَايَةِ وَالْإِهْتِدَاءِ؛ لِذَا كَانَ مِنَ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الدِّفَاعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّ الْكُتُبَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُدَافَعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، إِنَّمَا يُدَافَعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ حَامِلُهَا. (*).

وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنَ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالْحُجَّةِ يَسْمَى سَبِيلَ اللَّهِ؛ فَسَرَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بِالْأَمْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُمْ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ بِأَيْدِيهِمْ -يَعْنِي: الْأَمْرَاءُ-، وَهَؤُلَاءِ بِالْأَسْتِثْمِ -يَعْنِي الْعُلَمَاءُ-.

ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْجَامِعِ»^(٢) عَنْ بَعْضِهِمْ فِي قَدْرِ الْعُلَمَاءِ وَقِيَمَتِهِمْ:

(١) «صحيح البخاري» (١٠٠، و٧٣٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٣)، من حديث: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «نَصِيحَةُ الْعَلَامَةِ رَسْلَانِ لِطُلَّابِ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ» فِي يَوْمِ ١٦ مِنْ شَوَّالِ ١٤٣٨ هـ / ١٠ / ٧ / ٢٠١٧ م.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ١٥١، رقم ١٥٥)، ونسب هذه الأبيات لِأَبِي بَكْرٍ ابْنِ دُرَيْدٍ، وَنَسَبَهُ أَبُو طَاهِرٍ السِّلْفِي فِي «مَعْجَمِ السَّفَرِ» (ص ٢١٢ - ٢١٣، رقم ٦٨٤) وَغَيْرِهِ لِابْنِ الْأَثْبَارِيِّ.

وَمِدَادُ مَا تَجْرِي بِهِ أَقْلَامُهُمْ أَرْكَى وَأَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ
يَا طَالِبِي عِلْمِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مَا أَنْتُمْ وَسُؤَاكُمْ بِسَوَاءٍ
فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الطَّلَبِ عَلَى نَهْجِ
الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَفِي هَذَا النَّجَاةُ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِيهِ.

فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ النَّجَاةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُمَا مَعْدِنُ الْعِلْمِ وَأَصْلُهُ،
فَمَهْمَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَتَنَكَّبَهُمَا وَاسْتَدْبَرَهُمَا وَجَعَلَهُمَا دَبْرَ أُذُنَيْهِ
وَخَلْفَ ظَهْرِهِ؛ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ حَقًّا وَصِدْقًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي تَمُوجُ بِالْفِتَنِ مَوْجَ الْبَحْرِ،
وَهِيَ تَتَلَاطَمُ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ وَقَدْ عَلَتْ أَصَوَاتُهُمْ؛ فَتَسْنَمُوا كُلَّ ذِرْوَةٍ،
وَعَلَوْا كُلَّ مَنِيرٍ، وَصَارَ صَوْتُهُمْ عَالِيًا قَوِيًّا، وَإِنَّمَا هُمْ فِي النَّهَايَةِ غُثَاءٌ، مَنْ أَرَادَ
النَّجَاةَ وَالْحَالَ هَذِهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (*)

* الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ، وَالْجَيْشُ الْمِصْرِيُّ مِثَالًا:

قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَأَعِدُّوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ لِقِتَالِ الْكَافِرِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ
الْأَسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ الَّتِي تَكُونُ لَكُمْ قُوَّةً فِي الْحَرْبِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «حَيْثُ وَقَعَ نَفْعٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ الْمَحَرَّمِ ١٤٣٤ هـ / ١٦ -

وَأَعَدُّوا مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَرْبُوطَةِ الْمُجَهَّزَةِ لِلْهَجُومِ وَالْإِنْقِضَاضِ عَلَى الْعَدُوِّ بَعْدَ إِثْخَانِهِ وَتَدْمِيرِهِ بِقُوَّةِ الرَّمْيِ، تُخَوِّفُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُرْهَبَةِ، وَذَلِكَ الرِّبَاطُ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتُرْهَبُونَ آخِرِينَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْدَاءِ الظَّاهِرِينَ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، لَا تَظْهَرُ لَكُمْ عَدَاوَتُهُمْ الْآنَ، لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ.

وَأَعْدَادُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ الْمَالِيِّ، فَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ عَوَضَهُ فِي الدُّنْيَا؛ بَرَكَهً فِي رِزْقِكُمْ وَنَمَاءً فِي أَمْوَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تُنْقُصُونَ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا. (*)

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَضٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا -يَعْنِي: لَوْ كَانَ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا- وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنْ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

وَالْعُلَمَاءُ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- وَمِنْهُمْ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٢) عِنْدَ تَعَرُّضِهِ لِشَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ، ذَكَرَ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةٍ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنفال: ٦٠].

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

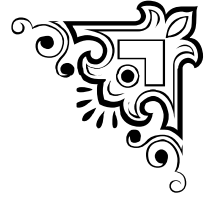
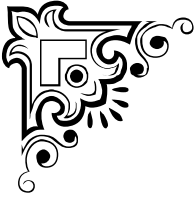
(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦ / ٢١٥).

قُوَّةُ الْقَلْبِ، وَقُوَّةُ الرُّوحِ، وَعَزِيْمَةُ النَّفْسِ، فَهِيَ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرْءَ فِي الْجِلَادِ عِنْدَ الْجِهَادِ لِأَنَّهُ يَكُونُ سَابِقًا فِي مَوْطِنِ الْمَوْتِ، تَنْوِشُهُ الرَّمَا حُ، وَتُمَزِّقُهُ السُّيُوفُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَنْكُصُ عَلَى عَقْبِيهِ.

وَلَكِنَّ جَمَهَرَةً غَالِبَةً مِنْ عُلَمَائِنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- أَخَذُوا بِالْإِطْلَاقِ:
«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ»: قَوِيٌّ فِي بَدَنِهِ، قَوِيٌّ فِي إِيمَانِهِ، قَوِيٌّ فِي صِحَّتِهِ، قَوِيٌّ فِي يَقِينِهِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: مِنْ سِلْسِلَةٍ: «رِحْلَةُ الْمَرَضِ وَفَضْلُ الْعَافِيَةِ» - الْمُحَاضَرَةُ الرَّابِعَةُ:
«فَضْلُ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ».



يَا أَهْلَ مِصْرَ!!^(١)

يَا أَهْلَ مِصْرَ قَضَى الْعَزِيزُ^(٢) بِلُطْفِهِ
 إِنَّ الَّذِي أَمَرُ الْمَمَالِكِ كُلَّهَا بِيَدَيْهِ
 أَبْقَى عَلَيْهَا أَمْنَهَا فِي بُرْهَةٍ
 وَكَسَا الْبِلَادَ سَكِينَةً مِنْ أَهْلِهَا
 أَوْ مَا تَرَوْنَ الْأَرْضَ خُرَّبَ نِصْفُهَا
 وَأَرَادَ أَمْرًا بِالْبِلَادِ فَكَانَا
 أَحْدَثَ فِي الْكِنَانَةِ شَانَا
 تَرْمِي الْعُرُوشَ وَتَنْشُرُ التَّيْجَانَا
 وَوَقَى مِنَ الْفِتَنِ الْعِبَادَ وَصَانَا
 وَدِيَارُ مِصْرٍ لَا تَزَالُ جِنَانًا؟!!

(١) الأبيات للشاعر أحمد شوقي الملقب بـ (أمير الشعراء) (المتوفى: ١٣٥١هـ)، من قصيدة: (الصليب الأحمر) من ديوانه «الشوقيات» (١/ ٢٧٨ - ٢٨٠)، يقول في مطلعها: (سر يا (صليب) الرِّفْقِ في ساحِ الوَعْيِ... وانشر عليها رحمةً وحناناً).

(٢) في «الديوان»: [يَا أَهْلَ مِصْرَ، رَمَى الْقَضَاءُ]، وفي نسبة الإرادة للقضاء في قوله: «وَأَرَادَ أَمْرًا بِالْبِلَادِ...» سوء تعبير؛ فإن القضاء تقدير الله ﷻ، وهو من صفاته، وصفات الله ﷻ لا ينسب إليها شيء من صفات الربوبية كالمشيئة والإرادة والتدبير والملك، والصواب هنا أن يقال كما تقدم: «يَا أَهْلَ مِصْرَ، قَضَى الرَّحْمَنُ بِلُطْفِهِ... وَأَرَادَ أَمْرًا بِالْبِلَادِ فَكَانَا»، أو نحو ذلك من العبارات التي فيها إسناد المشيئة والإرادة لله ﷻ لا إلى صفاته، وانظر: «المناهي اللفظية - مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٣/ ١١٤، ١٣١، رقم ٤٧٤، ٤٩٨).

عَوَامِلُ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ وَعَوَامِلُ سُقُوطِهَا

يَرَعَى كَرَامَتَهَا وَيَمْنَعُ حَوْضَهَا
جَيْشٌ يَعَافُ الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَا!
كَجُنُودِ عَمْرٍو أَيْمًا رَكَزُوا الْقَنَا
عَفُوا يَدًا، وَمُهَنَّدًا وَسِنَانًا
إِنَّ الشُّجَاعَ هُوَ الْجَبَانُ عَنِ الْأَذَى
وَأَرَى الْجَرِيءَ عَلَى الشُّرُورِ جَبَانًا
وَعُمْدَةً مَا يَدِينُ بِهِ سَفَاهَ
فَإِحْدَاثُ مَنْ أَبْوَابِ الْجِدَالِ (*)

لَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لَنَا الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ - فِي هَذَا الْعَصْرِ -، فَحَفِظَ اللَّهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ
إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَنَسَّأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَهُ فِيمَا يَبْقَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (* / ٢).

* عَلَى الْجَيْشِ تَقْوَى الْبِلَادِ، وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا (١):

أَرَى مِصْرَ يَلْهُو بِحَدِّ السَّلَاحِ وَيَلْعَبُ بِالنَّارِ وَلِدَانُهَا (٢)

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «جَمَاعَةُ الْإِخْوَانِ الْإِرْهَابِيَّةِ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ صَفَرِ ١٤٣٥ هـ /
٢٧ / ١٢ / ٢٠١٣ م.

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ لِلتَّوْبَةِ فِي رَمَضَانَ - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ شَعْبَانَ
١٤٣٦ هـ / ١٢ - ٦ - ٢٠١٥ م.

(١) الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، من قصيدة: (اعتداء) من ديوانه: «الشوقيات»
(١ / ٢٦٢ - ٢٦٦)، والتي نظمها شوقي لما حاول شاب متطرف اغتيال سعد باشا
زغلول - رئيس الوزارة المصرية يومئذ -، فنظم هذه القصيدة تهنئة لنجاته منها،
ونصيحة لأهل النزق والطيش من الشبان، التي يقول في مطلعها:

نَجَا وَتَمَائِلَ رَبَّانُهَا وَدَقَّ الْبَشَائِرُ رُكْبَانُهَا
وَهَلَّلَ فِي الْجَوِّ قَيْدُومُهَا وَكَبَّرَ فِي الْمَاءِ سُكَّانُهَا

(٢) (الولدان): الصبيان، جمع وليد.

وَرَاخَ بَغَيْرِ مَجَالِ الْعُقُولِ يُجِيلُ السِّيَاسَةَ غِلْمَانُهَا
وَمَا الْقَتْلُ تَحِيًّا عَلَيْهِ الْبِلَادُ وَلَا هِمَّةُ الْقَوْلِ عُمرَانُهَا
وَلَا الْحُكْمُ أَنْ تَنْقُضِي دَوْلَةً وَتَقْبِلَ أُخْرَى وَأَعْوَانُهَا
وَلَكِنْ عَلَى الْجَيْشِ تَقْوَى الْبِلَادُ وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا(*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «اللِّجَانُ النَّوْعِيَّةُ وَالشَّوْرَةُ الْمُسَلَّحَةُ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ الْمُحَرَّمِ

الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبَا قُوَّةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَنَصْرِهَا

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ حِيلَ النَّصْرِ الَّذِي يُقِيمُ الشَّرِيعَةَ لَا بُدَّ أَنْ يُحَقِّقَ أَسْبَابَ التَّمَكِينِ، وَيَحْصُلَ مُقَوِّمَاتِهِ.

الَّذِي يَتَأَمَّلُ فِي كِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ يَجِدُ أَنَّ سَبَبَ التَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ شَوْبِ الشُّرْكِ وَالْإِبْتِدَاعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِذَا فَلَا تَمَكِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، وَأَلَّا نَعْبُدَهُ تَعَالَى إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿[الجاثية: ١٨ - ١٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، لَا نَعْبُدُهُ تَعَالَى بِالْأُمُورِ الْمُتَبَدِّعَةِ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إِلَهُكُمْ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ؛ أَيِ ثَوَابِهِ وَجَزَاءِهِ الصَّالِحِ؛ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَهُوَ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا، وَهُوَ الَّذِي يُرَادُّ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، وَصَوَابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

مَتَى مَا حَقَّقَتِ الْأُمَّةُ رُكْنِي الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، وَأَتَتْ بِأَصْلِيهِ مَكَنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَهَا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «هَذَا مِنْ وَعُودِهِ الصَّادِقَةِ، الَّتِي شُوهِدَ تَأْوِيلُهَا وَعُرفَ مَخْبَرُهَا، فَإِنَّهُ وَعَدَ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُونَ هُمْ الْخُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، وَيَكُونُونَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي تَدْبِيرِهَا.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٧٣).

وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي فَاقَ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا، ارْتِضَاءً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا.

وَنِعْمَتُهُ عَلَيْهَا بِأَنْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِقَامَةِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَغْلُوبِينَ ذَلِيلِينَ.

وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمُ الَّذِي كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَذَى كَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَكَوْنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلِينَ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَقَدْ رَمَاهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَبَغَوْا لَهُمْ الْغَوَائِلَ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمُورَ وَقْتَ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ لَمْ تُشَاهِدِ إِلَّا سِتْخْلَافَ فِي الْأَرْضِ، وَالتَّمَكُّينَ فِيهَا، وَالتَّمَكُّينَ مِنَ إِقَامَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَمْنَ التَّامِّ، بِحَيْثُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا اللَّهَ.

فَقَامَ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَفُوقُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَفُتِحَتْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَحَصَلَ الْأَمْنُ التَّامُّ وَالتَّمَكُّينُ التَّامُّ.

حَتَّى وَقَفَ وَاقِفُهُمْ مِنْ مُجَاهِدِيهِمْ عَلَى فَرَسِهِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ يُخَاطَبُ أَمْوَاجَهُ، وَيُنَاجِي مَا هُنَالِكَ مِنْ مِيَاهِهِ، وَيَقُولُ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّ وَرَاءَكَ أَيُّهَا الْبَحْرُ قَوْمًا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، لَخَضَعْتُكَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِي هَذَا، وَلَا قَاتِلَنَّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

«هَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ».

وَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُومُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؟!!!

إِذَا كَانَ الَّذِي يَتَوَسَّلُونَ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ الطَّالِحِ! وَمِمَّا لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَاهُ!!
مَنْ الَّذِي يُنْصَرُّ؟!!

صَاحِبُ الْإِيمَانِ، صَاحِبُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَصَاحِبُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

مَنْ أَقَامَ الشَّرْعَ عَلَى نَفْسِهِ كَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، رُبُّوا عَلَى التَّوْحِيدِ،
اخْتَرَقَتْ بَدَايَاتُهُمْ، فَأَنَارَتْ نِهَايَاتُهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنَّهَايَةِ مُسْتَقِيمِينَ،
مُوحِّدِينَ، مُتَسَنِّينَ، وَكَذَا كَانَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْوَعْدُ قَائِمٌ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

«لَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا بُدَّ
أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ، وَإِنَّمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ وَيُدَالُ عَلَيْهِمْ فِي
بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ بِسَبَبِ إِخْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ».

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ - التَّمَكِينِ وَالسَّلْطَنَةِ التَّامَّةِ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ -
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَفَسَقُوا^(١)؛ فَلَمْ يُصْلِحُوا

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ: [وَفَسَدُوا].

الصَّالِحَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَهْلِيَّةٌ لِلْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتْرُكُ الْإِيمَانَ فِي حَالِ عِزِّهِ وَقَهْرِهِ
وَعَدَمِ وُجُودِ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ نِيَّتِهِ وَخُبْثِ طَوَيْتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا
دَاعِيَ لَهُ لِتَرْكِ الدِّينِ إِلَّا ذَلِكَ، إِلَّا خُبْثُ النِّيَّةِ وَسُوءُ الطَّوَيَّةِ!!

تَأَمَّلْ كَيْفَ مَكَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّبِيِّينَ مِمَّنْ أَعْلَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
شَأْنَهُمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ
﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:

. [٥٧ - ٥٤]

هَذَا التَّمَكِينُ الَّذِي مَكَّنَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِيُوسُفَ كَانَ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ
وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، حَيْثُ قَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- عَلَى لِسَانِ
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْصَحِي
السَّجْنَاءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا
أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:

. [٤٠ - ٣٧]

دَعْوَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُمَكِّنُ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٣ هـ الْمُوَافِقُ ٢٢ -

مِنْ عَوَامِلِ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ تَجَنَّبُ أَسْبَابَ سُقُوطِهَا وَهَلَاكِهَا

فَإِنَّ سُقُوطَ الدُّوَلِ وَالْمَمَالِكِ مِثْلُ قِيَامِهَا، خَاضِعٌ لِسُنَنِ هِيَ: وَلَادَةٌ، وَطُفُولَةٌ، وَشَبَابٌ، وَكُهُولَةٌ، وَشَيْخُوخَةٌ، وَهَرَمٌ، فَمَوْتُ، وَمِنْ الدُّوَلِ مَا يُتَوَفَّى قَبْلَ ذَلِكَ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ.

وَكَمَا يَكُونُ الْفَرْدُ عَالَةً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَهْلِهِ إِذَا كَبُرَتْ سِنُّهُ، أَوْ تَمَرَّدَ فِي سُلُوكِهِ، فَكَذَلِكَ الدُّوَلُ تَكُونُ عَالَةً عَلَى الْعَالَمِ، وَأَدَاةُ تَدْمِيرٍ لِدَايَتِهَا إِذَا شَاحَتْ أَوْ فَسَدَتْ، لِهَذَا كَانَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ أَنْ يُطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ أَيِّ دَوْلَةٍ إِذَا أَصْبَحَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْبَقَاءِ، وَيُقَيِّدُ اللَّهُ مَنْ يُخْرِجُهَا مِنْ مَسَرَحِ الْكَوْنِ مِنْ دَاخِلِهَا أَوْ خَارِجِهَا.

فَمَا هِيَ أُمَمَاتُ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ السِّيَاسِيِّ وَالسِّيَادِيِّ اللَّذِينَ هُمَا مَظْهَرُ وُجُودِ الْأُمَّةِ وَالِدَوْلَةِ، وَهُمَا آخِرُ مَا تَفْقِدُ مِنْ كِيَانِهَا، وَأَوَّلُ عَلَامَاتِ الْمَوْتِ الْكُبْرَى؟

بِالِاسْتِقْرَاءِ تَبَيَّنَ أَنَّ عَامَّةَ الْمَمَالِكِ وَالِدُّوَلِ أَشْبَهُ بِالشَّخَاصِ الطَّالِحِينَ لَا الصَّالِحِينَ، الصَّلَاحُ فِي الدُّوَلِ عَارِضٌ كَالْأَفْرَادِ، وَالْمُصْلِحُونَ فِيهَا لَيْسُوا مَحَلَّ تَرْحِيبٍ.

تَبْدَأُ الْأُمَمُ أَخْلَاقِيَّةً عَامِلَةً، فَإِذَا كَبُرَتْ ضَعُفَتْ أَخْلَاقُهَا مُقَابِلَ طُغْيَانِ مَادِيٍّ، وَأَصْبَحَتْ عُدْوَانِيَّةً إِنْ كَانَتْ قَوِيَّةً، أَوْ عَمِيلَةً إِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً، وَأَصْبَحَتْ مُتْرَفَةً.

فَالدُّوَلُ تَكْبُرُ وَأَخْلَاقُهَا تَضْمُرُ، وَتَجَارِبُهَا تَنْضَجُ، وَمُمَارَسَتُهَا تَسْتَطِيعُ، وَرُقْعَتُهَا تَتَّسِعُ، وَإِنْسَانُهَا يَتَمَزَّقُ، تَتَقَوَّى بِأَعْدَائِهَا، وَتُقَامِرُ بِأَبْنَائِهَا، وَيَرْتَعُ فِيهَا الْمُرْتَزَقَةُ وَالْخَوْنَةُ، وَعَادَةً يُحَاوِلُ الْأَفْرَادُ أَنْ يَخْتِمُوا حَيَاتَهُمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ؛ رَجَاءَ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، بَيْنَمَا لَا تَكَادُ تَمُوتُ أُمَّةٌ أَوْ دَوْلَةٌ كَيَانًا لَا فَرْدًا إِلَّا بِخَاتِمَةٍ سُوِّءٍ تَخْتَارُهَا.

وَأَهْمُ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ، وَانْهِيَارِهَا، وَذَهَابِ رِيحِهَا: الظُّلْمُ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

وَالظُّلْمُ عُقُوبَتُهُ مُعَجَّلَةٌ، وَالظُّلْمُ الْمُعَجَّلَةُ عُقُوبَتُهُ يَشْمَلُ ظُلْمَ الْأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا إِذَا أَصْبَحَ ظَاهِرَةً فَاشِيَةً، وَظُلْمَ الدُّوَلِ لِرِعَايَاهَا، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُ الظُّلْمُ الْاجْتِمَاعِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ وَالْاِقْتِسَادِيُّ.

وَالْمُلُوكُ وَالسَّلَاطِينُ أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِعَوَاقِبِ الظُّلْمِ الْوَحِيمَةِ، وَلَهُمْ كَلِمَاتٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ التَّارِيخَ يَشْهَدُ -أَيْضًا- عَلَى أَكْثَرِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ.

وَالظُّلْمُ الَّذِي يُسْقِطُ الدُّوَلَ هُوَ الظُّلْمُ الَّذِي يُنتِجُ الطَّبَقِيَّةَ فِي الْحَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَالَةِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ، وَيُنتِجُ الدِّيكتاتورِيَّةَ فِي الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ، وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ، وَلِهَذَا يُرَوَى: اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَلَوْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً.

وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الْإِشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَقِيمُ أُمُورُهُمْ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ، وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إِثْمٍ؛ لِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً، وَالدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٢)، فَالْبَاغِي يُصْرَعُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مَغْفُورًا لَهُ مَرْحُومًا فِي الْآخِرَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامَ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ.

تَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَعْلِ مُلُوكِ الْعِبَادِ وَأَمْرَائِهِمْ وَوَلَاتِهِمْ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ، فَكَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُورِ وَلَاتِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ، فَإِنْ

(١) «الحسبة - مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٦٣، ١٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١)، من حديث: أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخُرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي فِي «الصَّحِيحَةِ» (٩١٨).

اسْتَقَامُوا اسْتَقَامَتْ مُلُوكُهُمْ، وَإِنْ عَدَلُوا عَدَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ جَارُوا جَارَتْ مُلُوكُهُمْ وَوَلَاتُهُمْ، وَإِنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فَوَلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، وَإِنْ مَنَعُوا حُقُوقَ اللَّهِ لَدَيْهِمْ وَبَخِلُوا بِهَا مَنَعَتْ مُلُوكُهُمْ وَوَلَاتُهُمْ مَا لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَبَخِلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ.

وَإِنْ أَخَذُوا مِمَّنْ يَسْتَضَعِفُونَهُ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ فِي مُعَامَلَتِهِمْ أَخَذَتْ مِنْهُمْ الْمُلُوكُ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَكُوثَ وَالْوِظَائِفَ، وَكُلُّ مَا يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنَ الضَّعِيفِ يَسْتَخْرِجُهُ الْمُلُوكُ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، فَعَمَّالُهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُورِ أَعْمَالِهِمْ.

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ يُؤَلَّى عَلَى الْأَشْرَارِ الْفُجَّارِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِنْ جَنْسِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ خِيَارَ الْقُرُونِ وَأَبْرَهَا كَانَتْ وَلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، فَلَمَّا شَابُوا شَيَّبَتْ لَهُمُ الْوَلَاةُ.

فَحِكْمَةُ اللَّهِ تَأْبَى أَنْ يُؤَلَّى عَلَيْنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَزْمَانِ مِثْلَ مُعَاوِيَةَ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَضْلاً عَنْ مِثْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، بَلْ وَلَاتْنَا عَلَى قَدَرِنَا، وَوَلَاةٌ مَنْ قَبْلَنَا عَلَى قَدَرِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَيْنِ مُوجِبُ الْحِكْمَةِ وَمُقْتَضَاهَا.

وَمَنْ لَهُ فِطْنَةٌ إِذَا سَافَرَ بِفِكْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ رَأَى الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ سَائِرَةً فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فِيهِ كَمَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ سَوَاءً، فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِظَنِّكَ الْفَاسِدِ أَنَّ شَيْئاً مِنْ أَقْضِيَّتِهِ وَأَقْدَارِهِ عَارٍ عَنِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، بَلْ جَمِيعُ أَقْضِيَّتِهِ تَعَالَى وَأَقْدَارِهِ وَاقِعَةٌ عَلَى أَتَمِّ وَجْهِهِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، لَكِنَّ الْعُقُولَ الضَّعِيفَةَ مَحْجُوبَةً بِضَعْفِهَا عَنْ إدْرَاكِهَا، كَمَا أَنَّ الْأَبْصَارَ الْخُفَاشِيَّةَ مَحْجُوبَةٌ بِضَعْفِهَا عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ.

وَهَذِهِ الْعُقُولُ الصَّغَارُ إِذَا صَادَفَهَا الْبَاطِلُ جَالَتْ فِيهِ، وَصَالَتْ وَنَطَقَتْ وَقَالَتْ، كَمَا أَنَّ الْخَفَاشَ إِذَا صَادَفَهُ ظِلَامُ اللَّيْلِ طَارَ وَسَارَ!!

خَفَافِشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوْوِهِ وَلَا زَمَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ^(١)

* وَمِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ: كَثْرَةُ الْمُتَنَفِّعِينَ الْفَاسِدِينَ:

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾^(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾^(٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿ [الشعراء: ٣٧]

[٣٦ - ٣٩].

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

إِنَّهَا أَقْوَالُ كِتَابٍ مِنَ الْمُرْتَزَقَةِ الْفَاسِدِينَ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: الْمُجَاهَرَةُ بِأَحَادِيَةِ الرَّأْيِ، وَإِنْعِدَامُ الرَّأْيِ الْآخِرِ الْفَاعِلِ:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

* وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ: التَّفْرِقَةُ وَالْإِخْتِلَافُ، وَتَرْكُ الْإِعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَبَابُ الْفَسَادِ الَّذِي وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ فِي غَيْرِهَا هُوَ التَّفَرُّقُ وَالْإِخْتِلَافُ، فَإِنَّهُ وَقَعَ بَيْنَ أَمْرَائِهَا وَعُلَمَائِهَا مِنْ مُلُوكِهَا، وَمَشَايِخِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ»^(٢).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٦٠).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ الْجَلِيلِ^(٢): «أَمَّا الْإِعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ فَهُوَ التَّمَسُّكُ بِعَهْدِهِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَحُدُودِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِهِ. * وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: ظُهُورُ الْإِلْحَادِ، وَالنِّفَاقِ، وَالْبِدْعِ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣): «وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ هَؤُلَاءِ -يُرِيدُ مَنْ تَسَلَّطَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنَ التَّارِ وَالصَّالِحِينَ- كَانَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ هَؤُلَاءِ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ: ظُهُورُ الْإِلْحَادِ وَالنِّفَاقِ وَالْبِدْعِ، حَتَّى إِنَّهُ صَنَّفَ الرَّازِي بَابًا فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَعَمَلِ السَّحْرِ، سَمَّاهُ: السِّرُّ الْمَكْتُومُ فِي السَّحْرِ وَمُخَاطَبَةِ النُّجُومِ!!».

قَالَ: «فَالِاسْتِخْفَافُ وَالسُّخْرِيَّةُ بِالدِّينِ، وَتَقْدِيمُ الْعَوَائِدِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ، قَالَ تَعَالَى ذَاكِرًا مَا كَانَ مِنْ قَوْمٍ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧].

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢ / ١١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣ / ١٨٠).

وَلَمَّا دَاهَمَ التَّارُ أَهْلَ الشَّامِ، خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ لِمُوَاجَهَتِهِمْ وَكَانَتْ فِيهِمْ شُرَكِيَّاتٌ، فَجَعَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يُصَحِّحُ عَقِيدَتَهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ فِي رَدِّهِ عَلَى الْبُكْرِيِّ الْمَطْبُوعِ بِاسْمٍ: «تَلْخِيصُ كِتَابِ الْإِسْتِغَاثَةِ»^(١).

وَكَانَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ مِنَ الشُّيُوخِ الْعَارِفِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا يَقُولُ: هَذَا أَعْظَمُ مَا بَيَّنَّهُ لَنَا؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ هَذَا أَصْلُ الدِّينِ، فَكَانَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ فِي نَاحِيَةِ أُخْرَى يَدْعُونَ الْأَمْوَاتَ، وَيَسْأَلُونَهُمْ، وَيَسْتَجِيرُونَ بِهِمْ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ.

وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأَمْوَاتِ أَعْظَمَ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ الْمَيِّتَ فِي ضَرُورَةٍ نَزَلَتْ بِهِمْ، فَيَدْعُونَهُ دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ، رَاجِينَ قَضَاءَ حَاجَتِهِمْ بِدُعَائِهِ، وَالدُّعَاءِ بِهِ أَوْ الدُّعَاءِ عِنْدَ قَبْرِهِ، بِخِلَافِ عِبَادَتِهِمُ اللَّهَ تَعَالَى وَدُعَائِهِمْ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَلَى وَجْهِ الْعَادَةِ وَالتَّكْلِيفِ، حَتَّى إِنْ الْعَدُوَّ الْخَارِجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لَمَّا قَدِمَ دِمَشْقَ، خَرَجُوا يَسْتَغِيثُونَ بِالْمَوْتَى عِنْدَ الْقُبُورِ الَّتِي يَرْجُونَ عِنْدَهَا كَشْفَ ضُرِّهِمْ!! وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

يَا خَائِفِينَ مِنَ التَّرِّ ... لُوذُوا بِقَبْرِ أَبِي عُمَرَ

يُنْجِيكُمْ مِنَ الضَّرِّ.

ثُمَّ قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ كَلَامِهِ الَّذِي سَبَقَ^(٢): «فَلَمَّا أَصْلَحَ النَّاسُ أُمُورَهُمْ وَصَدَقُوا فِي الْإِسْتِغَاثَةِ بِرَبِّهِمْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وَلَمْ

(١) «تَلْخِيصُ كِتَابِ الْإِسْتِغَاثَةِ» (٢ / ٧٣١ - ٧٣٣).

(٢) «تَلْخِيصُ كِتَابِ الْإِسْتِغَاثَةِ» (٢ / ٧٣٨).

تُهْزِمَ التَّائِرُ مِثْلَ هَذِهِ الْهَزِيمَةِ قَبْلَ ذَلِكَ أَصْلًا؛ لِمَا صَحَّ مِنْ تَحْقِيقِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا تَمَكِينَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَتَمَكَّنَ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ النَّفُوسِ، وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَحْقِيقِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ»؛ فَفَهَمَ سَبَبَ اشْتِرَاطِ الْعُلَمَاءِ التَّوْحِيدَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْمُتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ النَّصْرِ، وَأَنَّهُ لَا يُغْمَضُ عَيْنُهُ عَنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ إِلَّا مِيكِيفَلِي قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْقَاعِدَةَ الْيَهُودِيَّةَ: «الْغَايَةُ تَبَرُّرُ الْوَسِيلَةِ!!»، وَاللَّهُ تَعَالَى الْعَاصِمُ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمُحَادَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمُشَاقَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمُحَارَبَةِ دِينِهِ بِالْإِلْحَادِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهِ، وَبِالْإِزْرَاءِ بِالدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ وَثَوَابَتِهِ وَأُصُولِهِ، وَبِالطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ، وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَفِي الصَّحَابَةِ، وَفِي الْعُلَمَاءِ، وَالتَّابِعِينَ، وَكُلِّ الصَّالِحِينَ!!

فَكَيْفَ يُؤْمَلُ قَوْمٌ نَصَرَ رَبَّهُمْ وَهُمْ يَعْمِلُونَهُ هَذِهِ الْمُعَامِلَةَ!!

وَأَنَا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!!

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الْأُمَمِ: قَابِلِيَّةُ الشَّعْبِ لِلْأَسْتِخْفَافِ، وَفَسَادُ إِرَادَتِهِمْ:

قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: تَكْرِيسُ الطَّبَقِيَّةِ، وَفَرَضُهَا وَإِقْعَا:

﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبَ مُرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٧٥] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: مُوَاجَهَةُ الْمُصْلِحِينَ، وَمُحَارَبَةُ الْقِيَمِ:

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وَعُرْبَةُ النَّاصِحِينَ، وَتَشْوِيهِهِمْ:

﴿فَإَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [٥٣] إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٤].

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٤] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥].

[٢٥].

وَمِنْ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ مَرَضَ أُمَّةٍ مَا هُوَ مَرَضٌ مَوْتِهَا إِلَّا سِتْغْنَاءُ بِالْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

وَالِاسْتِهَانَةُ بِالْعُقُوبَاتِ الْقَدَرِيَّةِ عَلَى الذُّنُوبِ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿أَيُّنَكُمْ لِنَاتُوبَ الرِّجَالِ وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَنَأْتُوبُكَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرِ ۖ
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾
[العنكبوت: ٢٩].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ الْعَمِيَاءُ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «يَقَعُ كَثِيرًا فِي الرُّؤَسَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ
وَالْحَاضِرَةِ إِذَا اسْتَجَارَ بِهِمْ مُسْتَجِيرٌ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا قَرَابَةٌ أَوْ صَدَاقَةٌ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ
الْحِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ وَالسُّمْعَةَ عِنْدَ الْأَوْبَاشِ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَهُ، وَإِنْ كَانَ
ظَالِمًا مُبْطِلًا، يَنْصُرُونَهُ عَلَى الْحَقِّ الْمَظْلُومِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَظْلُومُ رَئِيسًا
يُنَادِيهِمْ وَيُنَاوِيهِمْ، فَيَرَوْنَ فِي تَسْلِيمِ الْمُسْتَجِيرِ بِهِمْ إِلَى مَنْ يُنَاوِيهِمْ ذُلًّا أَوْ عَجْزًا.
وَهَذَا (٢) جَاهِلِيَّةٌ مَحْضَةٌ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ إِنَّمَا
كَانَ سَبَبٌ كَثِيرٌ مِنْ حُرُوبِ الْأَعْرَابِ كَحَرْبِ الْبُسُوسِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَنِي بَكْرِ،
وَتَغْلِبَ إِلَى نَحْوِ هَذَا.

وَكَذَلِكَ سَبَبُ دُخُولِ التُّرْكِ وَالْمَغُولِ دَارَ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِيلَاؤُهُمْ عَلَى مُلُوكِ
مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخِرَاسَانَ، كَانَ سَبَبُهُ نَحْوَ هَذَا.

(١) «السياسة الشرعية - مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) في المطبوع زيادة: [-على الإطلاق-].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الْجَهْلُ:

وَالْجَاهِلُ عَدُوٌّ نَفْسِهِ، وَهُوَ حَرْبٌ عَلَى أَهْلِهِ وَوَطَنِهِ، وَإِذَا تَفَشَّى الْجَهْلُ فِي مُجْتَمَعٍ، تَخَالَفَتْ وَجْهَاتُ أُنْبَاءِهِ، وَتَصَارَعَتْ رَغَبَاتُهُمْ، وَتَقَدَّمَتِ الْمَصَالِحُ الدَّائِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ، وَتَهَارَجَ الْجَهَالُ تَهَارُجَ الْحُمْرِ، وَكَانَ الْجَهْلُ سَبَبًا لِمَزِيدِ ضَعْفِهِمْ، وَذَهَابِ الْبَقِيَّةِ مِنْ قُوَّتِهِمْ، وَنُزُولِ الْبَلَاءِ، وَحُلُولِ الظُّلْمِ بِهِمْ.

لَا تَعْجَبُوا لِلظُّلْمِ يَغْشَى أُمَّةً فَتَنُوءُ مِنْهُ^(١) بِفَاتِحِ^(٢) الْأَثْقَالِ
ظُلْمُ الرِّعْيَةِ كَالْعِقَابِ بِجَهْلِهَا^(٣) أَلَمْ الْمَرِيضِ عُقُوبَةُ الْإِهْمَالِ^(٤) (*)

(١) نَاءَ بِالشَّيْءِ: نَهَضَ بِهِ مَثَقَلًا.

(٢) فِي الْمَطْبُوعِ: [بِفَاتِحِ]، وَالفَادِحِ: الثَّقِيلِ.

(٣) فِي الْمَطْبُوعِ: [لِجَهْلِهَا].

(٤) الْأَبْيَاتُ لِلشَّاعِرِ الْأَدِيبِ الْمَصْرِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَلَقَبِ بِتَوْفِيقِ الْبَكْرِيِّ الصَّدِيقِيِّ الْعَمْرِيِّ (الْمُتَوَفَّى: ١٣٥١هـ) مُؤَسِّسُ أَوَّلِ مَجْمَعٍ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، مِنْ قَصِيدَةٍ بِعَنْوَانِ: (شَذُور) مِنْ كِتَابِهِ: «صَهَارِيحُ اللَّوْلُؤِ» (ص ٢٠٩ - ٢١٤، مَطْبَعَةُ الْهَلَالِ)، يَقُولُ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ:

وَفِي وَسْعَةِ الْمَرءِ نَيْلُ الْعُلَا وَقَدْ يَمْنَعُ الْمَرءَ مَا يَمْنَعُ
صَغِيرٌ مِنَ الْأَمْرِ يُلْهِمُهُ عَنْ بُلُوغِ الْعِظَائِمِ أَوْ يَقْطَعُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «أَسْبَابُ انْهْيَارِ الدُّوَلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ/

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الْإِنْهِيَارُ الْأَخْلَاقِيُّ:

إِنَّ الْمُجْتَمَعَ إِذَا مَا انْهَارَتْ أَخْلَاقُهُ، وَإِذَا مَا سَقَطَتْ أَخْلَاقُهُ فِي الْحَمِيَّةِ الْوَبِيلَةِ، الْمُجْتَمَعُ إِذَا ظَهَرَتْ فِيهِ الْفَاحِشَةُ؛ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا، الْمُجْتَمَعُ لَا يُحَارَبُ بِمِثْلِ مَا يُحَارَبُ بِنَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ بَيْنَ أَبْنَائِهِ.

فَإِذَا انْهَارَتْ الْأَخْلَاقُ؛ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ لَا مَحَالَةَ. (*)

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَهَدْمِ الْمُجْتَمَعَاتِ: الْإِشَاعَاتُ:

تُعَدُّ الْإِشَاعَاتُ مِنْ أَهَمِّ أَسَالِيبِ وَوَسَائِلِ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ بِفَاعِلِيَّةٍ وَقْتَ الْحَرْبِ، وَكَذَلِكَ وَقْتَ السَّلْمِ فِيمَا يُعْرَفُ بِالْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَتَتَمَيَّزُ بِشِدَّةِ تَأْثِيرِهَا عَلَى عَوَاطِفِ الْجَمَاهِيرِ وَقُدْرَتِهَا الْكَبِيرَةِ عَلَى الْإِنْتِشَارِ وَفَاعِلِيَّتِهَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَبْدَأُ مِنْذُ وَصُولِهَا إِلَى الْمَكَانِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَيْهِ.

فَالْإِشَاعَةُ مِنْ أخطرِ الْأَسْلِحَةِ الْفَتَّاكَةِ وَالْمُدْمِرَةِ لِلْأَشْخَاصِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَلِلْإِشَاعَةِ قُدْرَةٌ عَلَى تَفْتِيتِ الصَّفِّ الْوَاحِدِ وَالرَّأْيِ الْوَاحِدِ وَتَوْزِيْعِهِ وَبَعَثَرَتِهِ. (* / ٢).

وَالسَّبَبُ الْجَامِعُ لِلْأَسْبَابِ كُلِّهَا هُوَ: الْمَعَاصِي، وَمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الْعِبَادِ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «الْحَرْبُ بِالْفَوَاحِشِ» - الْجُمُعَةُ ٢٢ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٨ هـ / ٦ / ٨ / ٢٠٠٧ م، باختصار.

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «الْإِشَاعَاتُ وَهَدْمُ الْمُجْتَمَعَاتِ» - الْجُمُعَةُ ٢٩ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٧ هـ / ٦ - ٥ - ٢٠١٦ م.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «لَا سَبَبَ لِلشَّرِّ إِلَّا ذُنُوبُ الْعِبَادِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَبِالْحَسَنَاتِ مَا يَسُرُّهُ مِنَ النِّعَمِ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فَالنِّعَمُ وَالرَّحْمَةُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً وَجُوداً، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَلَيْهِ حَقٌّ لِعِبَادِهِ، فَذَلِكَ الْحَقُّ هُوَ أَحَقُّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِ، بَلْ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْمَصَائِبُ بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ وَكَسْبِهِمْ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَالْأَنْهِيَارُ الْأَخْلَاقِيَّةُ، وَالْفَسَادُ الْمَالِيُّ وَالْإِدَارِيُّ يَسْتَجْلِبَانِ النِّقَمَ الْوَاقِعَةَ فِي الْأُمَّةِ -وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا-.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ظَهَرَ الزُّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ»^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ رقم ٤٦٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ رقم ٢٢٦١)، واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧/ رقم ٥٠٣٣، ٥١٤٣)، من طريق: عَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ سَمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ».

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ تُغَيِّرُ، وَلَا بُدَّ وَأَنَّ ضَرَرَهَا عَلَى
الْقُلُوبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا وَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِيَ!!؟

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبْوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ دَارَ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ، وَالسُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ إِلَى
دَارِ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ!!؟

=

وقد اضطرب سمالك في هذا الحديث؛ فقال أبو حاتم كما في «العلل» (٦/ رقم ٢٧٩٦):
«لَيْسَ هُوَ مِنْ حَدِيثٍ: عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ إِنَّمَا هُوَ: سِمَاكُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ»؛

فأخرجه أحمد في (٣٨٠٩)، وأبو يعلى (٤٩٨١)، وابن حبان (٤٤١٠)، من طريق:
شريك، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،
مرفوعاً، بلفظ: «مَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الرَّبِّا وَالزَّنَا، إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ ﷻ».

وشريك بن عبد الله النخعي: سبى الحفظ، انظر: «الميزان» (٢/ رقم ٣٦٩٧)، وتفرد
برفعه، وخالفه أبو الأحوص سَلَامُ بْنُ سُلَيْمٍ فرواه موقوفاً وهو الأشبه؛

فأخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٩، دار ابن حزم، بيروت)، والطبري في
«تفسيره» (١٧ / ٤٧٥)، من طريق: أبي الأحوص، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «إِذَا ظَهَرَ الزَّنَا وَالرَّبِّا فِي قَرْيَةٍ أُذِنَ بِهَلَاكِهَا»، موقوفاً.

وأخرجه أيضاً موقوفاً؛ المروزي في «السنة» (٢٠٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠ / رقم
١٠٣٢٩)، والداني في «الفتن» (رقم ٣٢١)، من طريق: الأعمش، عَنْ أَبِي سَلْمَانَ، عَنْ
أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «مَا هَلَكَ أَهْلُ نُبُوَّةٍ حَتَّى يَفْشَوْ فِيهِمُ الرَّبِّا
وَالزَّنَا».

والأثر بمجموع هذين الطريقتين صحيح موقوف، والله أعلم.

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ
وَبَاطِنَهُ، فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنُهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعُ،
وَبَدَّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلْظِي،
وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَالَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عَدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجْلِ الشَّيْخِ
وَالْتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجْلَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِإِلْبَاسِ
الْإِيمَانِ لِبَاسِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ؟!

فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَايَةُ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةُ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ
غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقَتِ فَأَزْدَاهُ، فَسَارَ قَوَادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ
وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ -فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ
مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ-.

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟!!
وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ عَلَى قَوْمٍ عَادٍ حَتَّى أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ
وَزُرُوعِهِمْ، وَدَوَابَّهُمْ حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَّمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟!!

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ،
وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟!!

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوْطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا
عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ

أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ مَا لَمْ يَجْمَعُهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ،
وَلَا خَوَانِهِمْ أَمْثَالَهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ!!؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلُلِ، فَلَمَّا سَارُوا فَوْقَ
رُؤُوسِهِمْ، أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلْظَى!!؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نَقَلَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ،
فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرَقِ!!؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ، وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ!!؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا!!؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ (يَاسِينَ) بِالصَّيْحَةِ حَتَّى خَمَدُوا عَنْ
آخِرِهِمْ!!؟

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ
الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ، وَسَبُّوا الذَّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ،
ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، فَأَهْلَكَهُمْ، وَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا
تَتَبِيرًا!!؟

وَمَا الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَخَرَابِ
الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ
الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»^(١) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: «حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرٍ بْنُ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ، فَفُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا؛ بَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ!! مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللَّهِ ﷻ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ؛ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ فِي «مُسْنَدِهِ»^(٢): «أُنْبَأْنَا شُعْبَةً، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الْمُسْنَدِ»^(٣) بِسَنَدٍ حَسَنِ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمُمُ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا».

(١) «الزهد» لأحمد (رقم ٧٦٣)، وأخرجه أيضا سعيد بن منصور في «سننه» (رقم ٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٢)، وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) «مسند ابن الجعد» (رقم ١٢٨)، وأخرجه أيضا ابن المبارك في «الزهد» (رقم ١٣٤٨)، ووكيع في «الزهد» (رقم ٢٩٠)، وأحمد في «مسنده» (١٨٢٨٩، و٢٢٥٠٦)، وأبو داود في «سننه» (٤٣٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٣١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٣٩٧)، وأخرجه أيضا أبو داود في «سننه» (٤٢٩٧)، وصححه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٨).

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟

قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ».

قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ؟

قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ».

وَفِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد»^(١) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي؛ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ».

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا فِيهِمْ -يَوْمَئِذٍ- أَنَاسٌ صَالِحُونَ؟

قَالَ: «بَلَى».

قُلْتُ: فَكَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ؟

قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

فِي سَنَدِهِ: لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، وَهُوَ «ضَعِيفٌ»؛ لَكِنْ لَهُ شَوَاهِدٌ تُثَبِّتُهُ كَمَا فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

(١) «مسند أحمد» (٢٦٥٩٦)، وأخرجه أيضا الطبراني في «الكبير» (٢٣ / رقم ٧٤٧)، من طريق: لَيْثٍ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثِدٍ، عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ»، ... الحديث.

وَدَفَعُ الْهَلَكَ عَنِ الْقُرَى وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ بِوُجُودِ الصَّالِحِينَ غَيْرِ الْمُصْلِحِينَ، بَلْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ الْمُصْلِحِينَ، فَالصَّالِحُ لَا يَتَعَدَّى صِلَاةً إِلَى غَيْرِهِ، وَأَمَّا الْمُصْلِحُ؛ فَهُوَ صَالِحٌ فِي ذَاتِهِ، وَيَتَعَدَّى صِلَاةً إِلَى غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وَلَمْ يَقُلْ: «وَأَهْلِهَا صَالِحُونَ».

وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ فِي مُلْكِ اللَّهِ -وَكُلُّ شَيْءٍ مُلْكُ اللَّهِ- إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَمَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ نَكَبَاتٍ هُوَ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ حَكَمٌ عَدْلٌ، فَهُمْ يَعْيشُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ حَسَنَاتِهِمْ، أَوْ نِقْمَةِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَلَّمَا اسْتَقَامَ الْعَبْدُ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ؛ اسْتَقَامَتْ لَهُ الدُّنْيَا عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ؛ فَضَلًّا عَنِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَيَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كُلَّ عَسِيرٍ، وَخَدَمَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَكَثُرَتْ فِي مُجْتَمَعِهِ الْخَيْرَاتُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَقَالَ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وَقَالَ: ﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤].

وَقَالَ: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ -وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ-: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَثُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْ لَا الْبُهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بِبَعْضِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أُمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ (١).

هَكَذَا تَفَعَّلَ الذُّنُوبُ، مَا حَلَّتْ نُذْرُهَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ إِلَّا سَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ، فَاَنْكَشَفُوا عَنْ عَدُوٍّ أَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ، وَاجْتَنَحَ أَرْزَاقَهُمْ، وَاسْتَبَاحَ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه لغيره الألباني في «الصحيحه» (١٠٦).

حُرْمَاتِهِمْ، وَقَيَّدَ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَفَعَلَ بِهِمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ عَلَى قَدَرِ مَا أَصَابُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَفَاتَهُمْ مِنَ الْمَسَرَّاتِ بِحَسَبِ مَا فَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَالرَّبُّ حَكَمٌ عَدْلٌ، وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ.

وَالْعُقُوبَاتُ قِسْمَانِ:

١ - عُقُوبَاتٌ قَدَرِيَّةٌ، وَهِيَ: مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ فَقْرٍ وَقَحْطٍ وَغَلَاءٍ لِلْأَسْعَارِ، وَجَوْرِ فِي السُّلْطَانِ، وَتَسْلِيْطٍ لِلْأَعْدَاءِ، وَفَسَادٍ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَفَقْدَانٍ لَطَعَمِ الْحَيَاةِ، وَالزَّلَازِلِ وَالْفَيْضَانَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْخَسْفِ وَغَيْرِهَا.

فَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِالْفَقْرِ وَالْقَحْطِ، وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ؛ فَيَسْبَبُ ذُنُوبَهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِفَسَادِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ فَكَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزْهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِالْفَيْضَانَاتِ وَالْخَسْفِ وَغَيْرِهَا؛ فَكَمَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَأَدِلَّةُ هَذَا الْبَابِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لَا تَكَادُ تَخْفَى.

وَأَشَدُّ مِنْ هَذِهِ كُلُّهَا: أَنْ يُعَاقِبُوا بِسَلْبِ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى، وَعَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْعِلْمِ:
 قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
 قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَقَلِبُ أَعْدَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي
 طَعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ^٢ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
 [الصف: ٥].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «وَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ وَمَبْدَئِهِ؛ يَعْرِفُ
 أَنَّ جَمِيعَ الْفَسَادِ فِي جَوْهٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَأَحْوَالِ أَهْلِهِ حَدِثٌ بَعْدَ خَلْقِهِ بِأَسْبَابٍ
 اقْتَضَتْ حُدُوثَهُ، وَلَمْ تَزَلْ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ وَمُخَالَفَتُهُمْ لِلرُّسُلِ تُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ
 الْفَسَادِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآلَامِ، وَالْأَمْرَاضِ، وَالْأَسْقَامِ،
 وَالطَّوَاعِينِ، وَالْقَحُوطِ، وَالْجُدُوبِ، وَسَلْبِ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَثَمَارِهَا، وَنَبَاتِهَا،
 وَسَلْبِ مَنَافِعِهَا، أَوْ نُقْصَانِهَا أُمُورًا مُتَتَابِعَةً يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَإِنْ لَمْ يَتَسَّعْ عِلْمُكَ
 لِهَذَا فَاتَّكِفْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾
 [الروم: ٤١].

وَنَزَلَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَطَابِقُ بَيْنِ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا، وَأَنْتَ تَرَى
 كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلُّ وَفَتْ فِي الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَيْفَ
 يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخْرَى مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ.

وَكُلَّمَا أَحَدَتْ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا؛ أَحَدَتْ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَّتِهِمْ، وَفَوَاكِهِهِمْ، وَأَهْوِيَّتِهِمْ، وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَصُورِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجِبٌ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

وَلَقَدْ كَانَتْ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتْ أَعْظَمَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةٍ صُرَّةً فِيهَا حِنْطَةٌ أَمْثَالُ نَوَى التَّمْرِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: «هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ»^(١).

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا فِي «مُسْنَدِهِ» عَلَى إِثْرِ حَدِيثٍ رَوَاهُ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عَذَّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةَ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، حُكْمًا قِسْطًا، وَقَضَاءً عَدْلًا، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونَ: «إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٢).

وَكَذَلِكَ سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى الرِّيحَ عَلَى قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَفِي نَظِيرِهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

(١) «مسند أحمد» (٧٩٤٩)، وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٤)، والدوري في «تاريخ ابن معين» (٤ / رقم ٣٨٩٧)، بإسناد صحيح، عَنْ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ، عَنْ أَبِي قَحْذَمٍ، قَالَ: «وُجِدَ فِي زَمَنِ زِيَادٍ أَوْ ابْنِ زِيَادٍ صُرَّةٌ فِيهَا حَبٌّ أَمْثَالُ النَّوَى عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: «هَذَا نَبَتَ فِي زَمَانٍ كَانَ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْعَدْلِ»».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣، و ٥٧٢٨، و ٦٩٧٤)، ومسلم (٢٢١٨)، من حديث: أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ مُقْتَضِيَاتٍ لِأَثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنَعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنَعِ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ، وَالْجَذْبِ، وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسِ فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ سَبَبًا لِحُجُورِ الْمُلُوكِ وَالْوَلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنْ اسْتَرْحَمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِذَا اسْتُعْطِفُوا.

وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ: أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُورِ وُلَايَتِهِمْ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهِمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تُحْضِرُهَا نَفْسُهُمْ وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنَعِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَوَزُّؤُهُمْ إِلَى أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزًّا؛ لِتَحَقُّقِ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةِ، وَلِيَصِيرَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْعَاقِلُ يُسِيرُ بِصِيرَتِهِ بَيْنَ أَفْطَارِ الْعَالَمِ، فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ؛ وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَاتِّبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ، وَأَنَّ سَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَى دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادًّا لِأَمْرِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ».

فَهَذِهِ كُلُّهَا عُقُوبَاتُ قَدَرِيَّةٌ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهُ النَّاسُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمَا يَجْتَرِحُونَهُ مِنَ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ.

٢- وَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ، فَهِيَ: بِأَنْ يُحَرِّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ حَلَالًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَشْيَاءَ بِيَعْيِهِمُ الَّذِي هُوَ الظُّلْمُ، وَهِيَ: كُلُّ ذِي ظُفْرِ مِنَ
الْإِبِلِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ إِلَّا مَا عَلِقَ مِنْهَا بِالظَّهْرِ
وَالْأَمْعَاءِ وَالْعِظَامِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ حَلَالًا عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ نُسِخَتْ
بِسُوءِ فَعَالِهِمْ: قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

وَمِثَالُهُ: قِصَّةُ تَعْنَتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ
الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ فِي الْأَوَّلِ بِأَيِّ بَقَرَةٍ تَيَسَّرَتْ لَهُمْ، فَتَمَرَّدُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ
بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَالْوَرَعِ الْكَاذِبِ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ قُبُودًا مُضْنِيَةً.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ أَخَذُوا أَذْنَى بَقَرَةٍ اكْتَفَوْا بِهَا؛ لَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ
عَلَيْهِمْ» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ كَثِيرٍ وَصَحَّحَهُ^(١).

وَالْكَلَامُ عَنْ سُقُوطِ الْأُمَمِ وَانْهِيَارِهَا لَيْسَ خَاصًّا بِأُمَّةٍ بَعَيْنَهَا، وَلَا بِدِيَانَةٍ دُونِ
غَيْرِهَا، بَلِ الْكَلَامُ عَنِ الْمُشْتَرَكَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابًا لِنُهْوِصِ الْأُمَمِ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٠٤، ٢٠٦، رقم ١٢٣٦، و١٢٤٦)، وابن أبي

حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٧، رقم ٦٩٣)، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» (١/

وَانْهِيَارِهَا، فَإِذَا أَخَذَتِ الْأُمَّمُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ أَوْ بَعْضِهَا؛ كَانَ التَّفَاضُلُ بَيْنَهَا، وَكَانَ عُنْصُرُ الْإِيمَانِ مُؤَثِّرًا أَعْظَمَ تَأْثِيرٍ فِي تَفَوُّقِ أَهْلِهِ إِذَا أَخَذُوا بِالْمُمْكِنِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْأُخْرَى، وَإِذَا فَرَطَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمُمْكِنَةِ؛ فَلَا يَلُومُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةٍ: «أَسْبَابُ انْهِيَارِ الدُّوَلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨ هـ/

الفهرس

٣	المُقَدِّمَةُ
٦	عَوَامِلُ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ فِي نَصَائِحِ جَامِعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ
١٧	التَّوْحِيدُ أَكْبَرُ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ وَعِزَّتُهَا وَنَصْرُهَا
٢٥	الْعَمَلُ بِأَمَانَةٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ
٢٨	الاجْتِمَاعُ وَالْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ مِنْ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ
٣٠	حُبُّ الْوَطَنِ وَالانْتِمَاءُ إِلَيْهِ مِنْ عَوَامِلِ بِنَائِهِ
٣٢	الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ
٣٧	يَا أَهْلَ مِصْرَ!!
٤٠	الْإِيْمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبَا قُوَّةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَنَصْرِهَا
٤٦	مِنْ عَوَامِلِ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ تَجَنُّبُ أَسْبَابِ سُقُوطِهَا وَهَلَاكِهَا
٧٢	الفهرس

